طريق حجـــاج جـــزيرة مدغشــقر
وأثره في تأكيد هوية مسلمي مدغشقر

مانـــــغ زكـــــــريا*

المقدمة:

إن علاقة المسلمين ببيت الله الحرام علاقة قوية، فهو قبلتهم، ومهوى أفئدتهم، يتجهون إليه خمس مرات في كل يوم وليلة في صلواتهم، مهبط الوحي، ومسقط رأس سيد الأنام صلى الله عليه وسلم. أمر الله عباده بأن يحجوا إليه قائلاً: وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا(٩٧) آل عمران، وأمر نبيه إبراهيم عليه السلام بدعوة الناس إلى الحج، فقال: وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧)الحج. وما من مسلم إلا وقلبه ممتلئ شوقا إلى رؤية هذا البيت العتيق. فأينما حل المسلمون، في كافة أرجاء المعمورة، فإنهم يسعون للوصول إلى مكة لأداء هذه الشعيرة العظيمة. وقد انتشر الإسلام في شرق أفريقيا في وقت مبكر، منذ القرن الثامن الميلادي، ولا شك أن مسلمي هذا الإقليم كانوا يؤدون فريضة الحج شأنهم في ذلك شأن المسلمين الآخرين.

ومن الأماكن التي قد وصل إليها الإسلام في وقت مبكر في شرق أفريقيا، جزيرة مدغشقر، تلك الجزيرة التي تقع في المحيط الهندي، قبالة الساحل الجنوبي الشرقي لأفريقيا. جزيرة عاش فيها، وتردد إليها أقوام من العرب، من الحجاز وعمان واليمن وغير ذلك، منذ القرن الثامن الميلادي. جزيرة كانت مرتبطة بالعالم الإسلامي منذ ذلك الوقت، حتى ذاقت مرارة الاستعمار، الذي قطع علاقتها واتصالها بالعالم الإسلامي فأصبحت معزولة عنه، وصارت بلاداً منسية، وباتت كأن لم تكن بينها وبين العالم الإسلامي عموماً، وبينها وبين الجزيرة العربية خصوصاً، أي قدر من العلاقات والصلة. وقد عمد المستعمرون إلى محاولة تغيير تاريخ هذه الجزيرة، وإخفاء كل ما يمت إلى الإسلام فيها بصلة، سعياً في طمس الهوية الإسلامية لها.

ولذلك جاءت فكرة كتابة هذا البحث، واختيار هذا الموضوع، للحديث عن علاقة المسلمين في جزيرة مدغشقر ببيت الله الحرام. وسيتناول البحث النقاط الآتية:

١- لمحة تاريخية عن دخول الإسلام إلى مدغشقر.
٢- رحلات الحجاج إلى مكة المكرمة.
٣- الطرق التي اتبعوها
٤- تقاليد المسلمين عند أداء شعيرة الحج.
٥- الفوائد الثقافية والاقتصادية من رحلة الحج.
٦- ثم الخاتمة

---

* باحث متخصص في دراسات شرق إفريقيا الإيميل: akbar_aly2000@yahoo.fr

المبحث الأول: لمحة تاريخية عن دخول الإسلام في مدغشقر:

كما أسلفنا، فإن الإسلام قد وصل إلى مدغشقر في وقت مبكر، وقد أثبتت دراسات مختلفة وأبحاث بأن العرب المسلمين قد وصلوا إلى مدغشقر في القرن الثامن الميلادي، في شمال شرقي مدغشقر، تحديداً في مدينة فوهيمارو Vohemaro. وقد أوضحت المؤرخة سوزان ريوت Suzanne Reutt، أن بداية تاريخ فوهيمارو Vohemaro مرتبطة بإنشاء المراكز التجارية التي أنشئت من أجل السفن التجارية العربية في المحيط الهندي[١]. وقد أنشئت المراكز التجارية خلال القرن الثامن والتاسع، ثم تلا ذلك الهجرات العربية إلى مدينة فوهيمارو Vohemaro، إلى القرن العاشر الميلادي[٢]. وقد توالت هذه الهجرات نتيجة النزاعات الدينية والسياسية التي مر بها العالم الإسلامي في ذلك الوقت، خاصة النزاعات بين الدولة الأموية والدولة العباسية، ويشهد على ذلك قصة هجرة رامينيا Raminia مع ذويه، من مكة إلى جزيرة مدغشقر، وهو أصل قبيلة أنتامباهواكا Antambahoaka، كما سنبين ذلك.وقد أصبح ميناء فوهيمارو ذا أهمية كبيرة، حيث تأتيه السفن من البلدان العربية وأفريقيا والهند، وأنشأ المسلمون فيها حضارة شامخة، يطلق عليها حضارة راسيكاجي Rasikajy، وهو ما يعني "رجال الشيخ حاج"، أي محمد صلى الله عليه وسلم فيما يقال[٣]، لكن من الواضح أنه اسم لشخص آخر من العرب ينسب إليه سكان فوهيمارو Vohemaro الأوائل.

ومما لا شك فيه أن وجود ميناء فوهيمارو Vohemaro، الذي كانت تأتي إليه السفن من الهند والصين، كما تؤكده الحفريات الأثرية التي اكتشف من خلالها وجود بعض البضائع الصينية القديمة التي كانت تتاجر بها العرب[٤]، والتي تتجه نحو السواحل الإفريقية الشرقية، ثم إلى الجزيرة العربية، لا شك أن لذلك دوراً كبيراً في ارتباط مدغشقر بالعالم الإسلامي، واستمرار صلتهم بالأماكن المقدسة.

وقد أنشأ المسلمون أيضاً في غرب الجزيرة مراكز تجارية أخرى، ذات أهمية أيضاً، في "بي بويني" أو "رأس بوييني" Baie de Boeny، في ماجونغا الآن.

كتب البرتغالي ديوغو دي كوتو Diogo de Couto، وهو يتحدث عن استكشاف لوبو دي سوزا Lobo de Sousa، في ١٥٥٧م: "إن المغاربة من سواحل ماليندي الذين قد وصلوا إلى مدغشقر منذ وقت مبكر، قد أسسوا مدينتين، حيث لا يزال يعيش فيها أحفادهم تحت سلطة شيوخ. إحداهما جزيرة في وسط خليج يسمى منزلاج Manzalage ... والآخر على الساحل الشمالي الشرقي في خليج آخر يدعى بيمارو Bimaro أي فوهيمارو Vohemaro[٥]" .

---

(١) La longue histoire de Vohemaro، الجزء الأول، Suzanne Reutt، la tribune de Diego et du nord de Madagascar، http://latribune.cyber-diego.com/، تاريخ النشر ٢٠١٤/١٢/٠٢م

(٢) تاريخ مدغشقر.. ذلك التاريخ، http://www.madarepdem.net/، تاريخ الزيارة ٢٠١٦/١٠/١٠م

(٣) تاريخ فوهيمارو الطويل، سوزان ريوت، la tribune de Diego et du nord de Madagascar، http://latribune.cyber-diego.com/، تاريخ النشر ٢٠١٤/١٢/٠٢م

(٤) المرجع السابق

(٥) Madagascar et l'Afrique، DidietNavitel et FaranirinaV.Rajaonah،

ويعتبر البدايةَ الفعليةَ لوصول المسلمين والعرب إلى مدغشقر، في القرن الثالث عشر الميلادي، أي في القرن السابع الهجري، حيث توالت وكثرت زيارة المسلمين لهذه المناطق بغرض التبادل التجاري، وقد اشترك البحَّارة المسلمون من الخليج العربي ومن حضرموت في الهجرات وفي التجارة، وقد عاشوا أولاً في شمال غرب وشمال شرق مدغشقر.

وجاء بعد ذلك ميناء رأس الملح "دييغو سواريس"، التي تقع أقصى شمال جزيرة مدغشقر، في "كاب دامبر" Cap d'ambre، وقد ذكرها الملاح العربي ابن ماجد باسم "رأس الملح"، أي كاب دامبر، كما أشار إليه باسم "بني إسماعيل" أيPort Bani Ismail، وهو الواقع قريباً من شاطئ "رامينا" Ramena، حاليا[٦].

واعتبارًا من القرن التاسع الميلادي، أقام المسلمون علاقاتٍ بين المناطق الصحراوية في العالم العربي، ومن بينها سيناء وشبه الجزيرة العربية من جهة، وموانئ جزيرة مدغشقر وموانئ جزر القمر من جهة أخرى، وقد لعبت جزر القمر دوراً كبيراً في المساعدة على تلك الهجرات[٧].

ثم جاء البرتغاليون إلى جزيرة مدغشقر في عام ١٥٠٠م، عن طريق ميناء رامينا Ramena، وأرادوا غزو الجزيرة، بهدف تنصيرها، وانتزاعها من أيدي المسلمين، حيث كانت تشكل ممراً مهماً في طريق الأوروبيين إلى الهند والصين[٨].

وقد لعب المسلمون دورًا كبيرًا في مدغشقر في حمايتها من الغزو البرتغالي، فحالوا دون دخولهم الجزيرة. لكن أعادوا الكرة بعد سنة أو سنتين، فدمروا معظم المدن في الجزيرة، وعملوا على عزلها عن العالم الإسلامي، وشجعوا البعثات التنصيرية[٩].

وميناء فوهيمارو المشهورة والمزدهرة، أصبحت مهجورة بعد تدمير البرتغاليين لها، فرنيهVernier و ميوMillotفسرا هذا الانحطاط بالغزو البرتغالي وسيطرتهم وأيضاً بسبب بعض الأعاصير المدمرة[١٠].

وهكذا أصبح المسلمون معزولين عن إخوانهم في العالم الإسلامي، ونتج عن هذه العزلة انتشار الجهل، ولم يجدوا طريقاً إلى الأراضي المقدسة، لأداء الحج، الذي كان يجدد لهم علاقتهم بدينهم ويحفظهم من الانحرافات. ولعل من هذا المنطلق، يمكننا تفسير إيجاد بعض المسلمين بناء رمزياً للكعبة حيث يحجون إليه كل سنة، محاولين ممارسة أعمال الحج، كما سموا قرية باسم مكة في الجنوب الشرقي

---

(٦) La longue histoire de Vohemaro، Suzanne Reutt، la tribune de Diego et du nord de Madagascar، http://latribune.cyber-diego.com/، تاريخ النشر ٢٠١٤/١٢/٠٢م

(٧) المسلمون في مدغشقر..تاريخ مشرف و واقع مرير، ثروت البطاوي، رسالة الإسلام، www.main.islammessage.com، تاريخ الزيارة ١٤٣٧/٠٥/٢٠هـ

(٨) Diego Diaz a la decouverte de l'ocean indien ،Nine C. ،http://turquoisesaulargе.over-blog.com/، ٢٠١١/٠٢/٢٧م.

(٩) المسلمون في مدغشقر..تاريخ مشرف و واقع مرير، ثروت البطاوي، رسالة الإسلام، www.main.islammessage.com، تاريخ الزيارة ١٤٣٧/٠٥/٢٠هـ

(١٠) تاريخ فوهيمارو الطويل، سوزان ريوت، la tribune de Diego et du nord de Madagascar، http://latribune.cyber-diego.com/، تاريخ النشر ٢٠١٤/١٢/٠٢م

الذي عاش فيه بعض قبائل العرب. ووجود مثل هذه الأماكن يؤكد لنا اهتمام المسلمين بأداء الحج والذهاب إلى الأراضي المقدسة؛ إلا أنه قد حال دون وصولهم إلى ذلك شيء، في عصر من العصور، وبعدما صاروا لا يتمكنون من أدائها، وصارت الأجيال تتناقل أن أجدادهم كانوا يؤدون عبادة مقدسة اسمها الحج في كل سنة، وأنهم يلبسون ملابس غير مخيطة، وبعد فشو الجهل وإرادة إحياء ما كان يصنعه أجدادهم، عمدوا إلى هذا التقليد البديل.

يقول الدكتور عبد الرحمن السميط رحمه الله، راوياً هذه القصة: " رأينا قرية بقرب مدينة (ماجونغا)أكبر مدن المسلمين في مدغشقر وقد أقاموا " كعبة " يحجون إليها مرة كل سنة.. ويشترطون لمن يريد الحج أن يلبس ملابس غير مخيطة.. كما رأيناهم يحرصون في حجهم على الإكثار من الدعاء وذبح ذبيحتهم".

هذا بعد أن أصبح المسلمون لا يعرفون كيف يصلون إلى الأراضي المقدسة، ولم يعودوا يعرفون أين هي.

يقول:"في عام ١٩٩٤م اكتشفنا قرية في جنوب شرق مدغشقر اسمها ((مكة))... سألناهم لماذا هذا الاسم؟ فقالوا : إنه اسم المنطقة التي هاجر أجدادهم منها. ! .ولكنهم لا يعرفون أين هي مكة.. مجرد أنها في الشمال.. كما أنهم لم يسمعوا بالسعودية ولا ببلاد العرب"[١١].

ولعلنا نشير بإيجاز إلى قصةبعض هجرات العرب، وهي محفوظة لدى قبيلة أنتامباهواكاAntambahoaka، لدى ما يسمى بـ"كاتيبو" أي كاتب، وهو الذي يكتب "سورابي" Sorabe الذي كانوا يكتبون به القرآن وغيره. كان هناك رجل يدعى رامينيا Raminia، كان في مكة، وأنه قرر أن ينتقل منها إلى مدغشقر مع ذويه وأصحابه، وكان على دين محمد صلى الله عليه وسلم، فغادر الجزيرة العربية، واتجه نحو دار السلام، ثم منها إلى ماهوري Mahory، أي جزر القمر، ثم منها إلى إيهارا Ihara، وهو اسم لفوهيمارو أيضاً، فبقي فيها نحواً من أربع سنوات، ثم اتجه جنوباً، تاركاً في فوهيمارو نصف من كان معه، فذهب حتى وصل إلى أمبوهيتسارا Ambohitsara، فحط رحله هناك، وخالط سكناها، وهي تقع في جنوب شرقي الجزيرة. ثم قال لمن كان معه:"لقد وجدت المكان المناسب لنا، والآن سأرجع إلى مكة لآخذ أموالي هناك، وإن لم أعد بعد ثلاث سنوات، فولوا عليكم أخي هذا. فعاد إلى مكة وبعد مضي الثلاث سنوات رجع، وبقي في الجزيرة مدة، ثم قرر هو الرجوع إلى مكة ليبقى هناك حتى موته، تاركاً في مدغشقر أهله. وقصة هجرة رامينيا Raminia هذا كانت في القرن الثاني عشر الميلادي[١٢].

وفي القرن الخامس عشر الميلادي، جاء وافد جديد مع رهطه كان اسمه راماكارارو Ramakararo قدم هو وأصحابه، وهو اسم يعني "أهل مكة المكرمة"، ومعه أنتالوترا Antalaotra (أناس من إشبيلية في الأندلس)، وأنتيماكاAntemaka(من المغرب)، وأنتيسيراAntesira

---

([١١]) رسالة من مدغشقر، عبد الرحمن السميط، http://www.muslm.org/vb/showthread.php?180604، تاريخ الزيارة ٢٠١٦/١٠/١٠م

([١٢]) Antambahoaka، http://www.macp.gov.mg/blog/kolontsaina-ny-antambahoaka/#more-11885، تاريخ الزيارة ٢٠١٦/١٠/١٠م

(من شرق إفريقيا)، وأنتيسونجو Antesonjo (من الجزائر)، وأنتيفاندريكا Antevandrika، وغيرهم من الذين فروا من الحروب بين المسلمين، أبحروا من البلدان العربية إلى زنجبار ومن زنجبار إلى جزر القمر. وظهرت عاصفة عنيفة، حتى ألقوا بعضهم في البحر تجنبا للغرق. ثم وصلوا إلى جزر القمر، والتي أطلقوا عليها اسم "Mahory"، ثم واصلوا رحلتهم حتى وصلوا إلى الجزء الشمالي الغربي من مدغشقر. لكنهم لم يستقروا فيها، بل انتقلوا إلى فوهيمارو Vohemaro، ومنها اتجهوا نحو الجنوب، حتى وصلوا إلى مكان عند مصب نهرماتيتاناناMatitanana في الجنوب الشرقي. وقد وصل إلى هذه المنطقة قبلهم رامينيا Raminia الذي ترك ذريته هناك. وهكذا جاءت قبيلة أنتيمورو Antaimoro المشهورة في جزيرة مدغشقر، وهم ينتمون إلى هذا الرجل الذي جاء من مكة[١٣]. ومهما يكن من أمر فإن هذه النصوص والروايات تؤكد تأكيداً جازماً بأن الحضور الإسلامي إلى مدغشقر قد حدث في فترة مبكرة جداً.

المبحث الثاني: رحلات الحجاج إلى مكة والطرق المتبعة:

المطلب الأول: الطرق البرية:

لا شك أن المسلمين في مدغشقر كانوا يحجون كما أشرنا، ولا شك أن وجود هذه الموانئ قد ساهم في تيسير ذلك، ويرجح أن المسلمين الأوائل في جزيرة مدغشقر كانوا يذهبون براً من مناطقهم إلى الموانئ الرئيسية. ولا شك أن الطريق كان شاقاً في ذلك، خاصة وأن المسلمين هم أول من سكن الجزيرة، فلم تكن الطرق معبدة، بالإضافة إلى غزارة هطول الأمطار التي تكاد أن تكون شبه يومية طوال السنة في المنطقة الشرقية، من منطقة قبيلة أنتامباهواكا Antambahoaka وأنتيمورو Antaimoro حتى فوهيمارو Vohemaro، الأمر الذي يعيق الطريق كثيراً، ومن أسباب المخاوف والمخاطر بسبب تعرض هذه المنطقة إلى الإعصارات القوية في أربعة أشهر من السنة أو تزيد.

و ماتيتاناناMatitanana، والمناطق التي حولها، التي استقر فيها واستوطنها العرب كما ذكرنا في قصة هجرة رامينيا Raminia و راماكارارو Ramakararo، تبعد عن ميناء فوهيمارو Vohemaro بحوالي ألف كيلومتر، فهم يقطعون كل هذه المسافة حتى يصلوا إلى ميناء فوهيمارو لينطلقوا منها. ويمكن القول بأنهم كانوا يركبون السيارات، التي ظلت وسيلة النقل البرية الأساسية في الجزيرة إلى عهد قريب، كما أنه من الممكن أن يكونوا قد قطعوا تلك المسافة مشياً على الأقدام. وقد ورد في قصة هجرة رامينيا أنه كان معهم ثلاثون بقرة، من بينها أبقار مثقوبة الأنف،إشارة إلى أنها كانت تستخدم لحمل الأغراض[١٤]. وقد وصف العرب الذين سكنوا سواحل مدغشقر، بأنهم يعرفون جيداً الطرق البرية في سواحل مدغشقر [١٥].

---

(١٣) Tafasydinika ho an'iMadagasikara، تاريخ القبائل، http://tafa-sy-dinika.jimdo.com/madagascar/، تاريخ الزيارة ٢٠١٦/١٠/١٠م

(١٤) أنتامباهواكاAntambahoaka، http://www.macp.gov.mg/blog/kolontsaina-ny-antambahoaka/، تاريخ النشر ٢٠١٣/١١/١٩م

(١٥) Madagascar et l'Afrique، Didier Navitel et Faranirina V. Rajaonah، ص ٨٥.

وبعد وصولهم بالسفن والمراكب الشراعية يكمل الحجاج طريقهم براً، بعد وصولهم إلى ميناء عدن أو جدة، ليتجهوا نحو مكة المكرمة، مشياً على الأقدام أو راكبين الجمال وغيرها ضمن وفود الحجاج القادمة من تلك المدن ومن تلك الديار.

إذ أن هذه الطرق ليست برية تماماً لأن في جزء منها لابد ركوب البحر، أي أن الطريق يبدأ براً ثم يتحول بحراً ثم يعود برياً.

المطلب الثاني: الطرق البحرية:

بحكم أن مدغشقر جزيرة يحيطها البحر، فقد ظل الطريق البحري هو الطريق الوحيد الذي يسلكه المسلمون في مدغشقر، للوصول إلى العالم الإسلامي عموماً، وإلى الأراضي المقدسة خصوصاً، حتى النصف الثاني من القرن العشرين، أي ما يزيد على عشرة قرون. وقد ساهم في تحقيق ذلك وجود الموانئ في الجزيرة، التي أنشأها المسلمون كما مر معنا ذكر ذلك من قبل، كميناء فوهيمارو وماجونغا وديبغو.

وقصة هجرة رامينيا Raminia في القرن الثاني عشر الميلادي، تعطينا بعض الصور عن طريق المسلمين من جزيرة مدغشقر إلى الأراضي المقدسة، حيث ذكر أنهم سافروا من الجزيرة العربية نحو دار السلام، ومنها إلى ماهوري، أي جزر القمر، ثم إلى فوهيمارو. كما أن القصة تذكر المدة التي قضوها في البحر، من دار السلام إلى سواحل الجزيرة؛ فتقول:"بعد أن أبحروا خمسة عشر يوما، مرت سفينتهم بمكان لم يكن البحر عميقاً لدرجة أن السفينة توقفت، فقرروا إلقاء بعض الأغراض من السفينة لتخفيفها، ثم واصلوا المسيرة، فبعد اثني عشرة يوما اشتدت الأمواج، وألقي بعضهم في البحر تخفيفاً للوزن، فنجوا، وبعد ثلاثة أيام وصلوا إلى أهارانا (أي فوهيمارو). كما أن القصة توضح لنا صعوبة الطريق، الذي يحتوي على هذه المخاطر. كما أنه جاء في القصة أن الذي يسافر إلى الأراضي المقدسة يودع توديع من لا يعود، حيث قال رامينيا لهم، عندما أراد العودة إلى مكة:"إن لم أرجع خلال ثلاث سنوات أقيموا عليكم أخي حاكماً "، ومن الممكن أن رامينيا الذي سافر إلى مكة خلال ثلاث سنوات قد حج في تلك الفترة[١٦].

كما أن قصة هجرة راماكارارو Ramakararo في القرن الخامس عشر الميلادي تعطينا صورة أخرى أيضاً عن رحلة المسلمين إلى مدغشقر، فقد ذكر فيها أنهم أبحروا حتى وصلوا إلى زنجبار، ومنها إلى جزر القمر، حتى وصلوا إلى السواحل الغربية للجزيرة، ويرجح أن يكونوا قد نزلوا في ميناء ماجونغا، في شمال شرقي مدغشقر[١٧].

ومن خلال ما مر، يمكننا القول بأن طريق حجاج جزيرة مدغشقر إلى الأراضي المقدسة كان عن طريق ثلاثة موانئ رئيسية، فوهيمارو (في الشمال الشرقي) وماجونغا (في الشمال الغربي) وديبغو

([١٦]) ينظر القصة كاملا أنتامباهواكاAntambahoaka، http://www.macp.gov.mg/، تاريخ النشر ٢٠١٣/١١/٥م

([١٧])أنتيمورو Antaimoro، http://www.macp.gov.mg/، تاريخ النشر ٢٠١٣/١١/٥م

(في أقصى الشمال)؛ وقد كانت السفن الكبيرة التي تأتي من خارج الجزيرة لا تنزل إلا في هذه الموانئ [١٨]، ثم من هذه الموانئ إلى جزر القمر، ومنها إلى زنجبار أو دار السلام.

وبعدما يصلون إلى السواحل الإفريقية، فإنه لا شك أنهم يسلكون الطريق المألوف لدى المسلمين من شرق إفريقيا في ذلك الوقت، بل يكملون المسيرة معهم، حيث كانت السفن عادة تنقل أغراضا تجارية، فمنها ما ينزل في الموانئ التجارية في شرق إفريقيا.

وقد كانت بعض السفن من زنجبار تتجه نحو عدن، ومنها يسلكون الطرق البرية، أو يأخذون سفينة أخرى ليتجهوا نحو جدة، ومنها إلى مكة المكرمة. كما أن بعض السفن تتجه شمالا على السواحل الشرقية لإفريقيا، مرورا بمومباسا ثم جيبوتي إلى ميناء زيلع، ومنها إلى جدة.

وهناك طريق آخر أيضا، وهو من موانئ الجزيرة إلى جزر القمر، ثم إلى مومباسا، ثم إلى موغاديشيو، ثم إلى عدن، ومن عدن إما يركبون السفن إلى جدة أو يذهبون براً. (استنتج هذا الطريق من خلال خريطة التبادل التجاري بين آسيا وأفريقيا) [١٩].

ولم يكن الطريق البحري آمناً، بل كان محاطاً بالمخاطر، وهناك العصابات والقراصنة، الذين يتعرضون للسفن التجارية، وكذلك الكوارث الطبيعية، كالأعاصير التي تكثر في هذه المنطقة.

وقد كان يحوم حولها البرتغاليون الذي حاولوا السيطرة على الجزيرة في القرن السادس عشر الميلادي، وكذلك البريطانيون والفرنسيون والهولنديون بعد ذلك، إضافة إلى تدمير البرتغاليين لمعظم المدن الإسلامية في الجزيرة وموانيها[٢٠]، كفوهيمارو Vohemaro وغيرها، كل ذلك شكل تحديات أمام ارتباط مسلمي الجزيرة بالعالم الإسلامي، وبالأراضي المقدسة.

المطلب الثالث: الطريق الجوي:

الطريق الجوي الذي يربط جزيرة مدغشقر بالدول الأخرى بدأ في الستينيات من القرن الماضي[٢١]، وليس هناك خط مباشر منذ ذلك التاريخ، يربط جزيرة مدغشقر بالجزيرة العربية إلى يومنا هذا. وكان الحجاج قديما يبحثون عن وكالات السفر لترتيب سفرهم إلى الحج، ليذهبوا فرادى، ولم توجد حملات الحج إلا قريباً، منذ خمس وعشرين سنة. فلم يكن عدد الذين يذهبون للحج معروفاً، خاصة وأن العدد قليل، ففي سنة ١٩٨٠م، يعتقد أنه ما حج من مدغشقر في تلك السنة إلا شخص واحد.

---

(١٨) Madagascar et l'Afrique، Didier Navitel et Faranirina V. Rajaonah، ص ٨٧.

(١٩) Madagascar et l'Afrique، Didier Navitel et Faranirina V. Rajaonah، ص ٧٦.

(٢٠) ينظر: Madagascar: touteunehitoire، http://www.madarepdem.net/، تاريخ الزيارة ٢٠١٦/١٠/١٠م، و ينظر: تاريخ فوهيمارو الطويل، سوزان ريوت، la tribune de Diego et du nord de Madagascar، http://latribune.cyber-diego.com/، تاريخ النشر ٢٠١٤/١٢/٠٢م

(٢١) Air Madagascar، https://fr.wikipedia.org/wiki/Air_Madagascar، تاريخ الزيارة ٢٠١٦/١٠/١٠م

كان الحجاج يمرون عن طريق دول أخرى، وإذا نظرنا إلى خط سير الخطوط الجويةالمدغشقرية، منذ عام ١٩٦٢م، يمكننا القول بأن الحجاج كانوا يسافرون من أنتاناناريفو، عاصمة البلد إلى جيبوتي، أو إلى جزر القمر، أو إلى كينيا في عام ١٩٧٠م[٢٢].

وهذا سيزيد من تكلفة الحج، فأصبح المسلمون لا يستطيعون الذهاب إلى الحج، بالإضافة إلى التدابير التي اتخذها المستعمرون لصرف الناس عن الحج، الذي كان يربطهم بالعالم الإسلامي، من خلال سن القوانين المشددة خاصة على المسلمين، وفرض الكتابة باللاتينية، وطمس المعالم الإسلامية في الجزيرة، وتغيير تاريخ البلاد، واضطهاد عدد من المسلمين في بعض المناطق، كما يشهد بذلك تاريخ مسجد تواماسينا Toamasina، فتركوا جيلاً جلهم لا يربطهم بالإسلام إلا أسماؤهم فقط. بل وتتعجب إذا سمعت كلام الدكتور عبد الرحمن السميط، عندما يروي قصته مع قبائل الأنتيمورو Antaimoro، عندما سأل بعضهم عن دينهم، فقالوا إنهم مسلمون بروتستانت، فقال: استغربنا هذا الجواب.. فقالوا لنا إن أجدادهم أخبروهم أنهم مسلمون لكنهم لا يعرفون الصلاة ولا الصوم وأن المبشرين البروتستانت المسيحيين جاؤوا وأخبروهم أن الإسلام والبروتستانتية شيء واحد وأنهم علموهم الصلاة وبنوا لهم كنيسة وأعطوهم الإنجيل".

المبحث الثالث: تقاليد المسلمين عند أداء شعيرة الحج:

لقد كان الذهاب إلى مكة حلماً يحلم به كل مسلم، والذي يتسنى له الفرصة لأداء هذه الفريضة، خاصة مع تلك العقبات التي أشرنا إليها، من التكلفة وغيرها، وكذلك بعد المكان، فإنه لا شك نعمة عظيمة يشعر بها الإنسان ومن حوله. وقد كانت الرحلة إلى الحج في مدغشقر مظنة للهلاك وعدم الرجوع والفراق إلى الأبد، وذلك إلى وقت قريب، خاصة وأن الناس سابقاً كانوا يرون أن الحج خاص بكبار السن. فلما كان الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة، وأن المرء يرجع من الحج بلا ذنوب كيوم ولدته أمه، رأوا أنه لا ينبغي أن يذهب إليه إلا كبار السن، حيث لم يبق من عمره إلا القليل، وأنه بعد رجوعه من الحج يستطيع أن يمسك نفسه عن الشهوات، بخلاف الشباب، فإنه حتى لو حج، قد يقع في الكبائر، فكانوا يرون أن مثل هذا لا فائدة من حجه. فمن هنا، كان الأهل يودعون من يذهب إلى الحج بحزن شديد، كأنهم لن يروه بعد ذلك.

والذي ذهب وهذه حاله، وحال الناس عند توديعه، فإذا رجع لا شك أنهم سيفرحون فرحاً عظيماً، وسيستقبلونه بحفاوة. ومن عادات الناس في مدغشقر، وهي موجودة إلى يومنا هذا، إقامة حفلة كبيرة لاستقبال الحجاج بعد رجوعهم من الحج، يحضر تلك الحفلة جماعة المسلمين، ويعطى لقب الحاج تشريفاً له، فلا ينادونه باسمه إلا مسبوقاً بهذا اللقب، فيقال حاج فلان.

وسأروي قصة رحلة حج إمام مسجد، في إحدى قرى شمال غرب مدغشقر، تسمى أمبوديبونارا Ambodibonara، وهي القرية التي أخرجت قادة عظاما في البلد، أمثال رئيس مدغشقر الأسبق ألبير زافي Albert Zafy. كان هذا الإمام يتمتع بمكانة عظيمة بين المسلمين في هذه المنطقة، يدعى إمام طبيب. لما أراد أن يحج، في عام ١٩٧٩م، جهز أوراقه، واشترى تذكرة السفر، من مدينة

---

[٢٢] ينظر المرجع السابق.

دييغو Diego إلى أنتاناناريفAntananarivo ثم إلى جيبوتي، ثم إلى جدة، وأعلن في المسجد أنه مسافر لأداء مناسك الحج، فسافر إلى العاصمة أنتاناناريف، بعد أن ودع أهله وقريته، والدموع على أعينهم، فهذا قد يكون وداعاً لا لقاء بعده، لكنه لم يتمكن من السفر في تلك السنة، بسبب التشدد من قبل الحكومة، فعاد إلى قريته، وكان عازماً على أداء الحج، فاحتفظ بماله حتى يتمكن من أداء الحج في العام الذي يليه. وفي السنة ١٩٨٠م، استطاع أن يسافر لأداء فريضة الحج، وكان هو الوحيد من جزيرة مدغشقر في تلك السنة، وكان يعرف اللغة العربية والسواحلية والهندية، فلما وصل إلى مكة، قابل أناساً من إثيوبيا، وتحدث معهم باللغة السواحلية، وطلبوا منه أن يساعدهم لأنهم لا يعرفون اللغة العربية، وبعد الحج أعطوه مالا هدية له، فاشترى بذلك هدايا لأهله، وشريط تلاوة القرآن، وبعض الكتب. ودخل مطعما، فسأله صاحب المطعم عن بلده، فما عرفوا البلد، وتعجبوا، من فصاحته ومعرفته باللغة العربية، فطلب منه صاحب المطعم بأن يأكل عنده كل يوم مجاناً حتى يسافر. بعد انتهائه من الحج ورجوعه إلى مدغشقر، وعلم أهله وأقاربه، فرحوا فرحاً شديداً، واستقبلوه بحفاوة، وذهبوا معه إلى قريته، وأول ما فعل عندما دخلوا القرية، دخل المسجد وصلى ركعتين، ثم ذهب نحو بيته، فأقيمت حفلة كحفلة زواج، والقرية كلها قامت، فأقاموا حفلات، قام الشباب في القرية فقالوا هذا إمامنا قد جاء من الحج، فدعونا نحتفل أيضا[٢٣].

المبحث الرابع: الفوائد الثقافية والاقتصادية من رحلة الحج:

المطلب الأول: الفوائد الثقافية:

الحج عبادة عظيمة تجمع المسلمين من كافة أرجاء المعمورة، في مكان واحد. ولا شك أن في هذا الاجتماع الكبير منافع لا تعد ولا تحصى، قال تعالى: **(لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ)**الحج: ٢٨.

ففيه يتعرف المسلمون بعضهم على بعض، يكتشفون ثقافات متعددة. وكان الحج فرصة لتعلم العلم لدى العلماء بحضور حلق العلم في مكة والمدينة، كما كان يفعله السلف الصالح رحمهم الله.

وقد كان السفر إلى الحج من جزيرة مدغشقر قديما يستغرق وقتاً طويلاً قد يصل إلى سنوات؛ كما مر معنا في قصة سفر رامينيا Raminia إلى مكة وعودته منها. فقد كانت الرحلة البحرية تعتمد على الرياح الموسمية، وقد سبق في القصة نفسها أن الرحلة من دار السلام إلى الجزيرة استغرق شهراً كاملاً. ولا شك أن المسلمين في رحلتهم إلى بيت الله الحرام يقابلون إخوانهم المسلمين من شرق أفريقيا، الذين كان يجتمعون في موانئ أفريقيا كزنجبار وغيرها. وهذا الاختلاط لا بد أن يكون له أثر في ثقافة هؤلاء القوم. وجدير بالذكر أن السفن التي يركبها المسلمون من جزيرة مدغشقر بعضها قد جاءت من جنوب شرق آسيا ومن الهند والصين.

وهذا الاختلاط بأقوام آخرين، في هذه المدة الطويلة، لا شك أن له فوائد عظيمة، إذ يجعل الإنسان يتعلم ويجد أشياء لم يكن يعرفها. وفي هذه الرحلة الإيمانية، يهتم المسلمون بالحديث عن الدين والتذكير والوعظ، من بعضهم البعض، فتثار مسائل في الدين، والرحلة إلى الحج نفسه يجعل الانسان يستفتي ويكثر من السؤال، ويهتم بالاستماع إلى الدروس العلمية، مما يساعده على فهم دينه أكثر

---

[٢٣] من مقابلة أجريت مع أحد أولاده عبد الشكور، ٢٠١٦/١٠/١٠م

فأكثر. كما أن بعض الحجاج قد يطول مكثه في الأراضي المقدسة لوصولهم إليها مبكرين أو متأخرين، لا سيما أن الرحلة البحرية قديما كانت تعتمد على الرياح الموسمية، فتارة تهب الرياح إلى جهة غير الجهة المطلوبة، فلا شك أن الحاج يستفيد من هذا المكث الطويل في الأراضي المقدسة، بحضور مجالس العلم، وأيضا قد يستطيع خلال مدة بقائه أن يتعلم اللغة العربية. وأيضا الزاد قد ينفد لطول السفر، فيضطر إلى أن يعمل بعض الأعمال، فيتعلم بعض الأعمال المفيدة من الآخرين، أو يكتسب من خلال أشياء عرفها في بلاده، فيستفيد منه الآخرين.

وما يشاهده الحجاج أثناء هذه الرحلة الإيمانية، من أخوة تتخطى جميع الحواجز العرقية والاجتماعية، وعبادة تجتمع فيها أنواع العبادات، ورؤية الأماكن المقدسة، كل ذلك يجعلهم يعودون إلى بلادهم حاملين هم الإسلام، متحمسين لنشره في بلدانهم. وقد يسمع بعض العلماء والدعاة أثناء الحج عن وجود أماكن تحتاج إلى دعوة فيقرر زيارتها، فيستفيد ذلك البلد. وقد ذكر أن راماكارارو Ramakararo، الذي ذهب إلى جزيرة مدغشقر في القرن الخامس عشر، كان هدفه الأساسي من هذه الرحلة هو نشر الإسلام والدعوة إليه[٢٤]. و راماكارارو كان في مكة كما تقدم في قصته، فمن المحتمل أن يكون قد سمع عن جزيرة مدغشقر أثناء مواسم الحج من الحجاج الذين جاؤوا إلى مكة المكرمة.ولما استقر هو وأصحابه في مدغشقر، نقلوا إليها ثقافتهم، وأتوا بأشياء لم تكن معروفة لدى أهل البلد، مثل صناعة الأوراق من الأشجار، وقد تناقلت الأجيال هذه الطريقة لصناعة الأوراق التي ورثوها عن أجدادهم إلى يومنا هذا، وهم ما يعرف بـ"Antaimoro Taratasy" أي ورقة أنتيمورو. كما أن الكتابة هم الذين جاؤوا بها فكانت اللغة المدغشقرية تكتب بالحروف العربية التي تسمى سواربي (Sorabe).
وبعض الحجاج الذين يعرفون اللغة العربية يشترون بعض الكتب والمصاحف مما يزيد معرفتهم وثقافتهم الدينية كما يقومون بتدريسها للطلاب في البلاد، مما يرفع المستوى الثقافي بالدين.

المطلب الثاني: الفوائد الاقتصادية:

كانت مدغشقر كما أشرنا ممراً مهماً للسفن، فقد احتلت مكانة مهمة في التجارة التي تربط بين جنوب آسيا والسواحل الشرقية لإفريقية، ومع جزيرة العرب في جنوب غربي آسيا. وشكل ذلك دافعاً قوياً لسكان هذه الجزيرة إلى الاشتغال بالتجارة والاهتمام بها، ومن هنا كانت الجزيرة تشارك بنشاط في التجارة المحيطية منذ بداية الألف سنة الأول للميلاد[٢٥]، إلى جانب الأعمال التي كانوا يمارسونها داخل الجزيرة. ولم يكن أهل الجزيرة معتمدين على السفن التي تأتي من الخارج فقط في تجارتهم تلك، بل هم بأنفسهم يتحركون بسفنهم في تجارتهم، يذهبون إلى السواحل الشرقية لإفريقيا، وصولاً إلى جزيرة العرب. يذكر ابن المجاور أن سفينة من القمر– يطلق قديما على جزر القمر ومدغشقر– وصلت إلى عدن في عام ٦٢٦هـ[٢٦].

([٢٤]) Antaimoro، http://www.macp.gov.mg/، تاريخ النشر ٢٠١٣/١١/٥م

([٢٥]) تاريخ إفريقيا العام، يونسكو، الجزء الثالث، ص ٧٧٦

([٢٦]) نقلا عن Didier Navitel et Faranirina V. Rajaonah، Madagascar et l'Afrique، ص ٧٤.

وأشرنا سابقاً إلى دور هذه الحركة التجارية في اتصال مسلمي مدغشقر بالعالم الإسلامي عموما، وبالأراضي المقدسة خصوصاً. فلا شك أن السفن التجارية قد ساهمت في تسهيل أداء مناسك الحج لمسلمي الجزيرة، خاصة التي تتجه نحو الجزيرة العربية، كما أن الحج أيضاً، كان يلعب دوراً كبيراً في تعزيز هذه الحركة. فالسفر إلى الأراضي المقدسة يحتاج إلى زاد، خاصة مع ظروف السفر التي سبق أن أشرنا إليها، وقد كان السفر يستغرق وقتاً طويلاً بسبب الاعتماد على الرياح الموسمية، وكذلك مدة البقاء الطويلة في الأراضي المقدسة، فمن الطبيعي أن يكون الحجاج وسط هذه الظروف يستعينون بحمل بعض البضائع والسلع للمتاجرة بها، ليساعدهم فيما يحتاجون، ويشترون كذلك بعض البضائع التي يجدونها أثناء سفرهم، سواء في الأراضي المقدسة أو في طريقهم إليها أو منها، ليحملوا تلك البضائع إلى الجزيرة.

ومن تلك البضائع التي يتاجر بها أهل الجزيرة التوابل والقرنفل وأصداف السلاحف والفنيلا وغير ذلك. وفي المقابل كانوا يشترون الأغراض التي يحتاجون إليها مثل الأقمشة والعطور وأنواع السجاد، والخزفيات، كما تؤكد ذلك الحفريات الأثرية التي كشفت ذلك في فوهيمارو Vohemaro [٢٧].

وهذا كله يمثل فائدة اقتصادية كبيرة في البلد، حيث كانت التجارة مع الخارج عبر السفن التجارية التي تأتي إلى موانئ الجزيرة تعتبر ركنا مهما في اقتصاد هذه الجزيرة.

إذن رحلات الحج كانت تشجع التبادل التجاري بين مسلمي مدغشقر والعالم الإسلامي. وليس من الضروري أن يكون هذا التبادل حاصلاً من الذين يذهبون لأداء الحج فقط، بل قد يكون معهم في رحلتهم تلك التجار الذين يريدون محض التجارة، ولا يريدون أداء المناسك، سواء من المسلمين أو غير المسلمين، فيحملون معهم البضائع والسلع المختلفة، إلى أرض الجزيرة العربية، وهذا التبادل التجاري مع العالم الإسلامي، إضافة إلى فوائده الاقتصادية، قد أدى إلى اعتناق كثير من الملاحين الملاغاشيين للإسلام[٢٨]، كما أنه من خلال رحلات الحج يتعرف كثير من المسلمين من أنحاء العالم الإسلامي على هذه الجزيرة، حين يقابلون الحجاج الذين جاؤوا من مدغشقر، فيبعث ذلك في نفوس بعضهم الرغبة في الذهاب إلى هذه الجزيرة، لغرض دعوي أو تجاري أو غير ذلك. وقد ذكرنا قصة راماكارارو Ramakararo، الذي جاء إلى الجزيرة مع أناس من أقطار شتى من العالم الإسلامي.

([٢٧]) تاريخ فوهيمارو الطويل، سوزان ريوت، la tribune de Diego et du nord de Madagascar، http://latribune.cyber-diego.com/، تاريخ النشر ٢٠١٤/١٢/٠٢م

([٢٨]) المرجع السابق ص٧٧٧.

الخاتمة:

لقد أمر الله المسلمين بأداء فريضة الحج، فاستجابوا لأمر ربهم، فجاؤوا من كل فج عميق، ليجتمعوا في تلك البقاع الطاهرة، لأداء هذه العبادة العظيمة. وسط هذا التجمع الهائل، يتعرف المسلمون بعضهم ببعض، يسأل بعضهم أحوال بعض، كما أنهم يتدارسون بينهم دينهم، مما يصونهم من الانحراف.

وقد تناول هذا البحث دراسة طريق حجاج جزيرة مدغشقر وأثره في تأكيد هوية مسلمي مدغشقر، وثبت من خلال البحث أن الإسلام قد دخل إلى مدغشقر منذ وقت مبكر، وأن المسلمين فيها كانوا على اتصال بالأراضي المقدسة، يؤدون مناسك الحج، رغم بعدها، ورغم كل الصعوبات التي يواجهونها في طريقهم، سواء في الطريق البحري، أو الطريق البري، أو الطريق الجوي الحديث. وقد كان الحج وطريقهم إليه يربطهم بالعالم الإسلامي، فأدى ذلك إلى انتشار الإسلام في الجزيرة، وشجع انتقال العرب والمسلمين إليها، سواء لغرض التجارة أو الدعوة أو غير ذلك، فارتقت بذلك ثقافة أهل الجزيرة، وقوي اقتصادهم، وما كتابة اللغة المدغشقرية بالحروف العربية إلا شاهده على ذلك.

كما بين البحث أنه بانقطاع ذلك الاتصال، بسبب الاستعمار، الذي عمد إلى اتخاذ كل التدابير التي من شأنها إضعاف تلك العلاقة بين مدغشقر والعالم الإسلامي، كتدمير ميناء فوهيمارو Vohemaro وغير ذلك، نتج عن ذلك انحرافات في الدين، وأصبح الجهل منتشراً، إلى حد أن القبائل التي أصولها عربية، لم تعد تعرف أين مكة، التي يسمعون أن أجدادهم الأوائل جاؤوا منها، بل البعض منهم اتخذوا لهم مكاناً رمزياً يطوفون حوله، ويذبحون الذبائح عنده، ولا يلبسون المخيط، كل ذلك محاولة لتقليد الحج... فسبحان الله، أصبح الإسلام غريبا في هذه الجزيرة.

وقد جاء هذا البحث ليؤكد أثر الحج، واتصال المسلمين بالأراضي المقدسة، في الحفاظ على هويتهم الإسلامية، وأنه بانقطاع ذلك الاتصال، يوشك أن يذهب عنهم دينهم... فسبحان من فرض الحج، الذي هو بمثابة المؤتمر والملتقى الإسلامي العالمي.

ومن هنا نستطيع القول بأن أهم النتائج التي خرج بها الباحث من هذه الدارسة تتمثل فيما يلي:

١) أن مسلمي مدغشقر قد ظلوا على صلة وثيقة بالعالم الإسلامي منذ أن عرفوا الإسلام في المراحل المبكرة للدعوة الإسلامية من خلال أدائهم فريضة الحج.
٢) أن المستعمر عمل وبذل جهوداً كبيرة لأجل صرف مسلمي مدغشقر وقطع علاقاتهم بالعالم الإسلامي ممثلاً في أداء فريضة الحج. لكن تلك الجهود والتدابير قد باءت بالفشل بفضل من الله تعالى ثم بإصرار مسلمي مدغشقر على التواصل مع العالم الإسلامي وأداء فريضة الحج.
٣) أن العالم الإسلامي وفي إفريقيا بخاصة بحاجة ماسة للتواصل مع بقية مجتمعات وبلدان العالم الإسلامي.
٤) إن الحج ظل على الدوام يمثل ملتقى جامع للمسلمين من كل صوب وحدب يبم خلال أيامه تبادل المنافع والمعارف والعلوم.

المراجع:

١. La longue histoire de Vohemaro، الجزء الأول، Suzanne Reutt، la tribune de Diego et du nord de Madagascar، http://latribune.cyber-diego.com/، تاريخ النشر ٢٠١٤/١٢/٠٢م

٢. Madagascar et l'Afrique، Didiet Navitel et Faranirina V.Rajaonah

٣. المسلمون في مدغشقر..تاريخ مشرف و واقع مرير، ثروت البطاوي، رسالة الإسلام، www.main.islammessage.com

٤. Diego Diaz a la decouverte de l'ocean indien، Nine C.، http://turquoisesaularge.over-blog.com

٥. رسالة من مدغشقر، عبد الرحمن السميط، http://www.muslm.org/vb/showthread.php?180604

٦. Antambahoaka، http://www.macp.gov.mg/blog/kolontsaina-ny-antambahoaka/#more-11885

٧. Tafa sy dinika ho an'i Madagasikara، تاريخ القبائل، http://tafa-sy-dinika.jimdo.com/madagascar

٨. أنتيمورو Antaimoro، http://www.macp.gov.mg/، تاريخ النشر ٢٠١٣/١١/٥م

٩. Madagascar: toute une hitoire، http://www.madarepdem.net

١٠. Air Madagascar، https://fr.wikipedia.org/wiki/Air_Madagascar